الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمـد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٩ —

الديانة الفارسية

الزرادشتية ومصدرنا عنها

ليس لدى الباحث عن الديانة « الزرادشتية » إلا مصدر واحد ، وهو كتابها المقدس : « زندأفيستا » الذى وإن كان لم تم جمعه إلا حوالى القرن السادس بعد المسيح إلا أنه قد احتوى على جزء عظيم يدعى « جاتها ياسنا » وهو الذي يرجح جميع العلماء أنه كلام « زرادشت » نفسه ويرجعون تاريخه إلى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح على ما اختلفوا فى وجود النبي الفارسى كما أسلفنا . وما ليس من كلام « زرادشت » من هذا القسم هو — فى رأى الكثرة المطلقة من الباحثين — يمثل « الزرادشتية » الأولى حق تمثيل ، ويصح أن يعتمد عليه في تاريخ العصر الأول من عصور هذه الديانة . وهذا القسم قد وجد مكتوباً بلغة قديمة ترجع إلى ذلك التاريخ الذى عينه العلماء .

الميتافيزيقا

يجد الباحث فى قسم « الجاتها » أن « زرادشت » أرجع جميع آلهة العهد القديم إلى إلـهين اثنين : إلـه الخير « أهورا مزدا » أو « هور مازاد » أو « هرموز » ؛ وإلـه الشر أو الكاذب أو الردىء ، وهو الذي سيسمى فيما بعد بـ « أهرمان » فى رأى المحققين . ولـكن هذه التثنية ليست على علاتها ، ولم تكن تثنية بمعناها الصحيح ، لأن الالـه الذى خلق الـكون هو « أهورا » أما « أهرمان » فلم يكن له عمل إلا إيجاد شبه ظل من الشر لكل خير يخلقه « أهورا » وهو وإن كان أزلياً كمازدا ، لأنه قديم ردىء له إلا أنه ليس أبدياً مثله ، إذ هو سيفنى عند ما يتغلب الخير على الشر فيمحوه من الوجود . أما رفعته عليه فهى ثابتة بنص الـكتاب المقدس الذى أسلفنا الاشارة إليه . وإليك شيئاً من هذا النص :

« استمعوا بآذانـكم الأشياء الجيدة وانظروا فيها بوضوح حتى تصمموا على أحد الايمانين ، لأن كل إنسان يجب عليه أن يصمم هو بنفسه قبل الفناء النهائى لـكى يكون حظ كل واحد منكم حسب اختياره .

إذاً ، فالروحان الأولان اللذان ظهرا في الوجود كتوءمين هما : الخير والشر ، وهما دائماً فى التفكير والقول والعمل والحكماء قد اختاروا بينهما ، وحسناً اختاروا ، ولـكن الفاليك هم الذين أساءوا الاختيار . وعند ما تقابل هذان الروحان فى مبدأ الوجود أسسا الحياة و « اللاحياة » . وفى نهاية الأشياء سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب الذين يتبعون الـكذب كما يكون أحسن الفـكر من نصيب الذين يتبعون الخير . . . » إلى أن يقول :

« أيها الفانون ، إذا أنتم أطعتم أوامر « مازدا » الذى نظم السعادة والألم ووضع قاعدة العقاب الطويل للـكذابين وبارك الأخيار فانـكم ستفوزون بالسعادة الأبدية [١] »

قد رأيت من هذا النص سمو « مازدا » على « أهرمان » من جميع النواحى ، وعلى الخصوص من ناحيتى الأخلاق والأبدية ، ولـكن هذا الالـه مع سموه وجلاله لم يسلب القوة والإرادة من البشر حتى ولا الأشرار منهم ، بل ترك لهم من الإرادة ما يكاد يساوى إرادته نفسها ، ليكونوا كاملى الحرية فى الاختيار . ولولا هذه الحرية لـما رأينا الـكذب والشر يسودان كثيراً على هذه الأرض وينتصران أحياناً على الخير ؛ وهذه السيادة وذلك الانتصار كانا أحياناً يدفعان « زرادشت » إلى التشاؤم واسوداد المزاج كما يظهر ذلك فى الأنشودة الآتية : « نحو أى بلد أفر أو أنجو بنفسى ؟ لقد فصلت من النبلاء ومن أمثالى ، والشعب ليس مسروراً منى ولا الـكذابون الذين يحكمون البلاد أيضاً . ما ذا أعمل لأرضيك أنت يا (مزدا أهورا) ؟

أنا أعرف جيداً لماذا لم أحز أي نجاح : ذلك لأنى ليس لدى

(١) ياسنا آية ٣٠

openkanz.com

مال ولا رجال . أنا أدعوك يا (أهورا) أن تمنحني مساعدتك كما يساعد الصديق صديقه .

يا « مازدا » متى تشرق شمس انتصار الخير فى العالم بوساطة الحكمة السامية الممثلة فى المحررين الذين سيجيئون [١] ؟ .

لم تقبل هذه التثنية « الزرادشتية » إلا أثناء حياة مؤسسها ، أما بعد موته فقد دار حولها الجدل ولم يفهم الناس هذه الموازنة المعقدة التى وضعها زرادشت بين الخير والشر . وما زال هذا الجدل يعمل عمله حتى انتهى حوالى القرن الرابع بعد المسيح باحداث تغيير جوهرى فى هذه الديانة ، فذهب فريق من رجال الدين إلى إنكار التثنية بتاتاً وإعلان التوحيد حيث صرحوا بأن « مازدا » هو الإله الأوحد ، وأن « أهرمان » ليس خصما له وإنما هو خصم روح القدس فى « مازدا » إذ هذا الأخير يحتوى على روحين : أحدهما خير والثانى شرير [٢] .

الملائكة والأرواح الخفية

يتحدث كتاب « زند أفيستا » عن عدد من كبار الملائكة كانوا وزراء لأهورا مازدا ، وقد حددهم القسم المتأخر من هذا الكتاب بستة وزراء ، كل واحد منهم له اختصاص معين وعمل محدود ؛ ووزاراتهم هى كما يأتي : (١) الفكرة الخيرة . (٢) الفضيلة الجلى . (٣) الامبراطورية المشتهاة (٤) التنازل الكريم . (٥) الصحة (٦) الخلود

هؤلاء هم رؤساء الملائكة الذين يكونون الهيئة العليا التى تلى « أهورا » مباشرة . وهناك عدد عظيم من صغار الملائكة ومن الأرواح والجن ، لكل واحد منهم أيضاً مهمة يقوم بها ومنزلة يشغلها ، وهذه المهمات تختلف فى جوهرها كما تختلف فى قيمتها ، فبعضها أخلاقي كصغار الأعمال الخيرية ، وبعضها مادى كالعناصر والنباتات المختلفة . ولقد أخذ هذا العدد الأخير يتضاءل ويزداد سلطته حتى طغى أو كاد على الديانة الزرادشتية ولو فى البيئات العامية على الأقل حيث عاد بالجماهير إلى عبادة العناصر كما كانت الحال فى الديانة القديمة . وقد بعث « ميثرا » من جديد وأصبحت النار والشمس والقمر والنجوم ملائكة ثم آلهة ، واستردت أهميتها الأولى فى تلك الأوساط وعاد إلى الوجود من جديد « أهوما » إله الخمر الذي رأيناه فى الديانة الأولى كما حدثت خرافات أخرى لم يكن للفرس عهد بها من قبل كذلك العملاق ذى الأرجل الثلاث والذى له أهمية فى إدارة العالم . ولكن ينبغي أن نلاحظ أن مازدا هو الذى كان لا يزال الإله الرئيس على جميع هؤلاء ، ولم يكن الآخرون إلا آلهة ثانويين أو ملائكة أو أرواحا .

هؤلاء جميعاً هم أعوان « مازدا » أو هم الحزب الأعلى ؛ أما الحزب الأدنى أو أنصار إله الشر فهو يتألف طبعاً من «أهرمان» رئيساً ، وقد كان الشعب فى أول الأمر يتمثله فى ثعبان أو فى ذكر الضفدع أو فى حيوان ردئ مزعج أو فى حصان جمح وتوحش ثم استطاع أحد الملوك أن يقبض عليه ويخضعه ، ولكن لما تقدم الشعب وارتقت عقليته لم يعد يتمثل إله الشر على هذه الصورة المادية الساذجة ، وإنما خطا به نحو التصوير المعنوي فرفعه إلى عالم المدركات العقلية وجعل له وزراء ستة كأهورا يختص كل واحد منهم بعمل من أعمال الشر والسوء ، وعلى رأس هؤلاء وضعوا « أندرا » الإله الشعبي القديم ، ولكن تحت اسم وزير سابع خاضع لأهرمان . ودون هؤلاء الوزراء وضع رجال الدين أيضاً ملائكة شر وأرواح سوء وشياطين وسوسة وضلال ، وذلك مثل ملك الرعد وملك العواصف المدمرة ، وكالأرواح الحالة فى الحيوانات المؤذية والحشرات الضارة ؛ وهناك أيضاً من هذا الحزب شياطين موكل كل واحد منها برذيلة من الرذائل ، عليه أن ينميها وينشرها ويعلى شأنها [١]

لم يكتف رجال الدين بهذا التقسيم ، بل ذهبوا إلى ماهو أبعد من ذلك فعينوا شمال بلاد فارس كمستقر لأرواح الشر وشياطينه ، وعلموا الشعب بعض تعاويذ سحرية إذا قرأها المؤمن فرت من أمامه أرواح الشر وتضعضعت قوتها وهوت إلى مكان سحيق . وكان أهم هذه التعاويذ ما أخذ من الكتاب المقدس ثم قرئ بطريقة خاصة ولهجة معينة ورنة مُوَقَّعَة .

الإنسان أو الشخصية البشرية

لم يوجد فى القسم القديم من « زند أفيستا » ما ينبئنا برأى

(١) يسنا آية ٤٦

(٢) راجع (١) . (ف) « جاكسون » . دراسة الزرادشتية صفحة ٧٠ طبعة نيويورك سنة ١٩٢٨

(١) انظر تفصيل كل هذا في كتاب .. جاكسون الذى أشرنا إليه آنفا من صفحة ٣٧ إلى صفحة ١٠٩

زرادشت فى الشخصية البشرية من : جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير ، وإنما كل ما لدينا فى هذا الشأن قد وجد فى الأجزاء الأخيرة التي كتبت بعد عصر زرادشت بزمن غير يسير ، أى بعد ما ارتقت المعارف الإنسانية نوعا ما وبدأ الخاصة يفكرون فى ثنائية الانسان ويحللونه إلى جسم وروح .

يجد الباحث فى هذه الآيات المتأخرة أن الانسان يتألف من جسم وروح وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء : اللحم والعظم والقوة الحيوية والصورة أو القالب ، وهذا الأخير هو وحده الذى يعود إلي الحياة فى حالة البعث دون الثلاثة الأول التى لا تبقى

وأما الروح ، فهي عندهم خمسة أنواع ، بين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى شيء من الترادف أو التقارب يجعل التحديد الدقيق صعباً أو كما يقول أحد الباحثين الأوربيين « إن مفردات لغاتنا لا تستطيع التعبير الصحيح عن هذه المعانى » . وهاك هذه الأقسام الخمسة للروح :

(١) النفس والالهام والعقل (٢) الدين والضمير الخلق والوحى (٣) الوجدان النفسي والشعور والاحساس (٤) الروح بأدق معانى الكلمة (٥) الفراشى . وهو عبارة عن شبح سماوى هو فى نفس الوقت ملك حارس وروح جوهرية ، وعلى الجملة هو الانسان الحقيقى الذى ليس الكائن البشرى إلا مظهراً له ، وهو وحده الذى يستطيع أن يتصل بأهورامازدا ويحيا فى حضرته ، ولهذا عند الموت يفني الانسان كله فى هذا الفراشي »[1]

مصير الروح

عند ما يموت الميت تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة إلى جانب الجسم ، منعمة بنعيمه أو معذبة بعذابه ، وفي فجر اليوم الرابع تهب عليها ريح إما معطرة إذا كان الميت خيراً ، وإما نتنة إذا كان شريراً فتحملها إلى موضع تلتقى فيه إما بفتاة جميلة ، وإما بعجوز مفزعة ، وليست الأولى فتاة حقيقية ولا الثانية عجوزاً حقيقية ، وإنما هى صورة أعمال الميت ، وهى ضميره نفسه الذى سيقوده إلي حيث معبر الحساب والحكم الأخير . وعلى باب هذا المعبر يوجد ثلاثة قضاة بينهم « ميثرا » وهناك ينصب ميزان توضع في إحدى كفتيه حسنات الميت وفى الأخري سيئاته . وبناء على صعود إحدى الكفتين يصدر الحكم على مصير هذا الميت .

ويلاحظ أن الثواب والعقاب لم يكونا ينصبّان على كل حسنة أو كل سيئة على حدة ، بل على مجموعة النوعين ، فاذا رجحت الحسنات كفرت السيئات مهما كانت كل واحدة منها فى ذاتها جسيمة ؛ كما يلاحظ أن الندم والتوبة لم يكونا معتبرين ، وأن الغفران فى الحساب لا وجود له ألبتة لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة .

وعلى أثر انتهاء الوزن وصدور الحكم يؤمر المحاسب بالمرور فوق هذا المعبر أو الصراط الممتد فوق الجحيم ، الذي يتسع أمام الأخيار ويضيق حتى يكون أدق من الشعرة وأحد من الشفرة أمام الأشرار .

فهؤلاء الأخيرون يهوون في جحيم مظلم ظلاماً كثيفاً إلى حد يستطاع معه لمسه باليد ، فاذا هوَوا فى الجحيم كانوا متزاحمين كأنهم كمية من الشعر فى مَسْرَفة حصان ، ومع ذلك فكل واحد منهم يشعر فى وسط هذا الزحام بوحدة قاسية وعزلة ممضة .

أما الأخيار ، فيذهبون إلى النور حيث يستقبلهم « أهورمازدا » بعد أن يمروا فى وسط العمل الصالح والقول الخير والفكر الطيبة ، وهناك يستمتعون في كنف « مازدا » بالسعادة الأبدية .

هذا كله بالنسبة لمن ثقلت موازينهم أو خفت ؛ أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فهم يوضعون فى مكان فسيح بين السماء والأرض ، يقاسون فيه آلام الحر والبرد ، ويحسون بجميع التغيرات الجوية ، ويظلون ينتظرون فى أمل ورهبة الحكم الأخير على مصيرهم الذى يظل مظلما ماداموا فى هذا المكان . وأشهر أهل هذا الموضع هو : « كيريزاشپا » الذي قتل وحشاً مرعباً فحسب له ذلك حسنة ، ثم دنس النار المقدسة فحسبت عليه سيئة مساوية للحسنة الأولى فظل بين النعيم والجحيم[1]

« يتبع »

محمد غمراوى

(١) راجع كتاب «مولتون» صفحات ٢٥٤ ومابعدها و«جاكسون» بصفحات ١٢٣ وما بعدها

(١) راجع « مولتون » صفحة ١٧٦